فى صميم الريف

جاذبية الأرض — عمق التقاليد — منطق البيئة

بقلم الأستاذ سيد قطب

اعتدنا أن نفكر فى الاصلاح الاجتماعى ، وأن نقترح المشروعات الاجتماعية ، ونحن مطمئنون على مكاتبنا فى القاهرة ، وكل ما نعتمد عليه فى التفكير وفى الاقتراح هو النظريات الاجتماعية التى نقرؤها فى الكتب والصحف ، وهو الملاحظات التى تعن لنا عن حالة الطبقات المختلفة فى العاصمة ، ثم هو بعد هذا وذلك ذكريات غامضة عن الريف ، أو ملاحظات عابرة عمن نلقاهم فى الحين بعد الحين من أهل الريف .

والآن — وقد عنت لى جولة فى هـذا الريف — أحس إن كل ما نفكر فيه ونحن فى مكاتبنا بالقاهرة ، إنمـا هو عبث فى عبث ، بل سخف فى سخف ، وأن الريف الذى نريد إصلاحه ونزعم معرفتنا بمـا ينقصه من ضروب الإصلاح ونقترح له المشروعات المختلفة ، هذا الريف بعيد عنا ونحن بعيدون عنه ، لا يفهم أفكارنا ولا نفهم أفكاره ، وإنه لينظر إلى مشروعاتنا واقتراحاتنا نظرة الاستغراب والتعجب المصحوبين بالسخرية لأننا لا نعرف شيئا حقيقيا عنه :

وأريد أن أطلقها صيحة مدوية يهتز لها من يشاء ويتندر بها من يشاء : نحن فى القاهرة غرباء ، غرباء عن مصر . نحن أجانب عن حقيقة هذه البلاد ، أجانب عن صميم هذا الوطن . نحن نختلس الجنسية المصرية اختلاسا ونروح ندعى أننا مصريون بينما الصلة منقطعة بيننا وبين مصر . . . مصر التى هى هنالك فى صميم الريف ، مصر الخالدة فى ضمير الزمن ، مصر الحقيقية ، لا مصر المصطنعه الشائهة المزيفة التى فى القاهرة .

فإذا كنا جادين فى ادعائنا أننـا نريد للريف الخير ، ونفكر له فى الإصـلاح ، فلنعرف الطريق أولا إلى ضمير هذا الريف ، ولنتعرف أولا إلى قلبه ، ولن ننال ذلك ونحن جالسون فى مكاتبنا المريحة بالقاهرة ، ولن نصنعه ونحن نتنفس فى جو القاهرة ، ونحن نحيا هـذه الحياة الصناعية المزيفة الغريبة على النفس المصرية ، وعلى الطبيعة المصرية ، وعلى البيئة المصرية .

الريف هنالك فى الريف ! ومصر أيضا هنالك ، والمجتمع المصرى الذى نحاول علاجه ، والأمراض الاجتماعية التى نطب لها ، ... كل أولئك بعيد عنـا ونحن بعيدون عنه ، وكل مشروعاتنا ونحن بعيدون هى مشروعات مستعارة ، كالوجوه التنكرية ، وبينها وبين الواقع فرق ما بين الوجه التنكرى والوجه الطبيعى !

تعالوا أيها المصلحون الاجتماعيون هنا إلى الريف. عيشوا أيها المشرعون الاجتماعيون هنا فى مصر. ولا تأتوا — إذا جئتم — بعقلية القاهرة ، ونفسية القاهرة ، فإن الريف لن يفهمكم إذن ولن تفهموه ، ولكن تعالوا إلى هنا لتندمجوا فى البيئة ، ولتكابدوا مشقاتها ، وتفكروا تفكيرها . ثم بعد ذلك كله — لا قبله — ضعوا المشروعات لإصلاح الريف على أساس الواقع لا على أساس التقاليد .

* * *

(١)

ها هى ذى عربة الديزل تقطع الطريق من القاهرة إلى أسيوط ، ثم ها هوذا القطار يطوى الأرض إلى سوهاج... ها هوذا الوادى الخالد يتسع تارة ويضيق ، ولكنه هو هو الوادى الأخضر الوديع المنساب كالنغمة الحلوة من الناى العميق !

وها هو ذا الغروب الرائع ، وها هو ذا منظر الرواح . فالريفى وبهائمه وماشيته يؤلفون " موكب الرواح " من الحقول . ذلك الموكب الذى ألفه الوادى منذ مئات الأجيال . إنه هو هو لم يتغير ولم يتبدل منذ آلاف السنين .

أيها الوادى . إنك لساحر . أيتها الأرض إن لك لجاذبية ، وإن هـذا الفلاح لمشدود إليك منذ الأزل ، وإنه لن يتخلص من هذا الوثاق ، فإذا شاء المصلحون الاجتماعيون وإذا شاء المشرعون الاقتصاديون أن يفكروا فى طرق الاصلاح وفى وسائل الرخاء ، فليبنوها على أساس هذه الجاذبية .

لقد لقينى الكثيرون ممن يحبوننى من أهل الريف فكانت أقصى أمنيتهم لى أن يكون لى زرع وجرن ومحصول ... إن هذه الأمنية الساذجة لتصور مدى اعتزاز هؤلاء الناس بالأرض ، ومدى سحر الأرض وجاذبيتها لهم . إنهم لا يتصورون أمنية أسعد ولا أكبر من الزرع والقلع ! إنهم مخلصون للوادى ، متفاهمون مع الطبيعة ... إنهم مصريون !

وإنه ليجب أن نلتفت إلى هذا عند المفاضلة بين المشروعات الاقتصادية والعمرانية يجب أن تكون المشروعات المتعلقة بالأرض وبالزراعة هى أول ما نفكر فيه لأنه يتفق مع هذا الحب الخالد للوادى ، ومع هذه الجاذبية العميقة للأرض .

إن هـذا الفلاح الريفى لن يهجر الأرض الحبيبة إلى أى عمل آخر إلا حين تنبذه هذه الأرض ولا تعود تعوله وتقوته ، وإنه ليتركها حينئذ مرغما وهو يحن إليها مهما اشتغل بالصناعة وبالتجارة . وإنه ليعود إليها عند أول فرصة فيجب إذن أن نلبى رغبته وحبه بأن نحاول استصلاح أكبر مساحة نستطيع أن نستصلحها من أرض الوادى ، وأن تكون المشروعات النيلية لتوفير المياه لهذا الاستصلاح فى مقدمة المشروعات . فأما اذا أردنا الصناعة فلنقدم الصناعات الزراعية على كل صناعة أخرى ، فإنها ترتكن إلى أساس متين ، وإلى حب دفين ، فى نفوس المصريين .

والماشية ! إنها قرينة الأرض فى الجاذبيـة وعديلتها فى المحبة . إن جاموسة الفلاح وبقرته وجمله وغنمه هم أصدقاؤه . نعم وأعبر عنهم بضمير العاقل (هم) فإن الفلاح يعاملهم معاملة الأصدقاء والعقلاء ، ويحس لهم فى نفسه ما يحس للأهل والأبناء .

فيجب إذن أن يكون لهذه الظاهرة أثرها فى مشروعاتنا . يجب أن نمهد لهـذا الريفى اقتناء أحسن السلالات رويدا رويدا ، وأن نلقحها ضـد الأمراض مجانا ، وأن نسرع بقانون التأمين على المـاشية ، فإن هذا التأمين لها هو تأمين لحياة الفلاح كلها ، وحين يعرف هـذا الفلاح أن بقرته أو جمله أو جاموسته مضمونة الحياة أو الثمن سيشعر بالاطمئنان على حياته وحياة أبنائه ، وعلى رزقه ورزق عياله ، ولن يذبح البهيمة المريضة ويبيع لحمها الموبوء فينشر الأمراض بين الآدميين ، فإنه إنما يصنع هـذا لأن بهيمته رأس ماله ، فليتقذ منه ما يستطيع إنقاذه !

ويطول بنا الحـديث حين نمضى فى استعراض المشروعات التى يمكن تقديمها والعناية بها على أساس المعرفة بجاذبية الأرض فى الريف ، فنلخصه فى كلمتين اثنتين : الزراعة والصناعات الزراعية وما يتعلق بهما من مشروعات .

* * *

(٢)

ونحن سكان القاهرة — يخيل إلينا فى بعض لحظات الحمق والغرور — أننا نملك تغيير ما لا نحب من عادات مصر وتقاليدها ، بحملة صحفية ، أو إذاعة لاسلكية ... ... !

ألا ما أشد غرورنا نحن القاهريين ! إن التقاليد المصرية لأعمق من أن تؤثر فيها هذه الصيحات التى تذهب فى الهواء . إن مصر الحقيقية هى هـذا الريف المتماسك القوى المؤمن بتقاليده إيمانه بالدين !

وإننا لنغيب عن هذا الريف الخالد بضع سنوات فيخيل إلينا أن الزمن صنع هناك شيئا وأننا سنعود إلى الريف فنجده قد تغير كثيرا أو قليلا . ثم نعود ... فإذا الريف هو الريف : هادئ مطمئن ، مخلد إلى عقائده وتقاليده ، مؤمن بعاداته وشرائعه ، فإذا نحن حاولنا أن نعيش هناك بعقلية القاهرة ، وأن نعامله بتقاليد القاهرة ، نظر إلينا فى عجب رفيق وسخرية خفيفة ، ومضى فى طريقـه هادئا مطمئنا ، فما نلبث نحن أن نتخاذل ، وأن نتضاءل ، وأن تنطوى قاهريتنا ويتبخر غرورنا ، ونعود نحن أيضا لتقاليد الريف ولأحكام الريف !

وقل ما تقول عن ضرر هذه الحالة وعن أثرها فى تأخرنا وجمودنا ، وعن وعن . . فإن هذا كله لن يغير من الواقع شيئا ، ولن يزحزح الريف عن اطمئنانه وهدوئه ، ولا عن إيمانه بتقاليده .

وقل ما تقوله أيضا ؛ فان تستطيع أن تنكر أن قوة الريف إنما تتمثل فى هذه الظاهرة ، وأن مصر قد ابتلعت كل الفاتحين وكل الوافدين بهذه القوة نفسها ، وأن عمق تقاليدها هو الذى حماها من الأندثار فى خلال عشرين قرنا قضتها فى ظلال الفاتحين من كل جنس ودين !

فعلى هذا الأساس ينبغى أن نبنى مشروعاتنا الاجتماعية : كل مشروع يعارض التقاليد العميقة مقضى عليه بالفشل مهما كان صالحا ، ومهما كانت السلطة التى تسنده ، ومهما كانت العقوبة التى توكده . وما هو إلا أن يصطدم بالصخرة الراسية المطمئنة حتى يذهب بددا ، وتبقى الصخرة الراسية المطمئنة .

لقد كنت من أشد الداعين مثلا إلى سن قانون بالكشف الطبى على الزوجين قبل الزواج . كنت متحمسا لهذا المشروع وأنا هناك فى القاهرة ، أشاهد المجذومين والمصروعين والمسلولين ، وأعلم بأنهم أبناء المرض والشذوذ ، وأشاهد فتيات القاهرة وهن يسبحن فى الطرقات كالديدان و يرتدن كل مكان . فكنت حينئذ أنادى : يجب أن يكشف على الخطيبين قبل الزواج !

ثم جئت إلى الريف . فإذا هذا المشروع الذى كنت متحمسا له ، حلم جميل ، وخيال بديع . ولكنه لا يستطيع أن يثبت للواقع ، ولا أن يقف للتقاليد !

أين هى الأسرة التى تعرض فتاتها على الطبيب ليقرر صلاحيتها للزواج ، مهما تكن شدة العقاب ؟ إنه لا وجود لهذه الأسرة ، ولو شذت أسرة واحدة ، لوقفت التقاليد العميقة فى الطريق . وليقل من شاء كيف شاء : "هذا تأخر . هذه رجعية . هذا جمود" فسيذهب هذا القول فى الهواء ، وسيتم الزواج بلا كشف طبى ، وسيحتال على القانون ، فإذا لم توجد الحيلة فسيخرق القانون ، وليكن ما يكون !!!

أفلا سبيل إذن إلى الإصلاح الاجتماعى أمام التقاليد ؟

هنالك السبيل ، ولكن على شرط ألا يصطدم بالتقاليد ! وأن يكون العرف والدين مساعدين للقوانين . ومن الذى يعرف هذا العرف من القاهريين ؟ ومن الذى يعرف الدين فى الريف كيف يكون ؟

أيها المشرعون : تعالوا هنا إلى الريف قبل أن تتعبوا أنفسكم فى صوغ القوانين . ومن الريف ، ومن تقاليد الريف ، خذوا الاتجاه العام ثم صوغوا النصوص كما تشاءون !

(٣)

وللبيئة هنا منطق لا سبيل إلى تجاهله . وهو منطق الواقع الملموس .

جلس معى شاب ريفى غنى يتحدث من نفسه فى سذاجة وطلاقة وهناك مستمعون كثيرون . قال ما معناه : "إن من نعم الله على أنى لا أعاف شيئا ، وأن نفسى لا تتقزز

من شيء . فلست كالآخرين الذين يرون مريضا أو قذرا يشرب من إناء فلا يشربون من ذلك الإناء ، أو يسمعون أن هناك مريضا بمرض يعدى فيمتنعون عن زيارته ... إنني أتوكل على الله ، ونفسي لا تخشى شيئا من قدرالله " .

فماذا قال السامعون ؟ إنهم جميعا بلا استثناء ، وفيهم الشيخ والشاب ، وفيهم الغني والفقير ، قالوا بصوت واحد : "هذه نعمة من نعم الله عليك حقا ! هذا شيء جميل ومريح ! هذا فضل من الله ! "

هذا منطق البيئة . البيئة التي تعجز المتحرزين عن التحرز . والذين عاشوا في الريف يعلمون معنى هذا الكلام ، فلن تستطيع أن تعزل مريضا عن بقية الأصحاء ، لأن منطق البيئة لا يستسيغ هذا العزل . ولن تستطيع التقصير في عيادة مسلول ، لأن منطق البيئة لا يقبل عذرك في هذا التقصير . ولن تستطيع أن تتقزز من طفل قذر أو رجل أجرب أو مجذوم ، لأن منطق البيئة لا يغفر لك هذا التقزز .

وما هو إلا أن تقيم في هذه البيئة بضع سنوات حتى تطحنك طحنا ، وتعجنك عجنا ، وتحيلك ريفيا في منطقه ومعاملته ، لأن هذا هو منطق الريف !

ومن هذه الكلمات التي نقلتها لك من حديث هذا الريفي تستطيع أن تفهم كيف تنتشر العدوى ، وكيف تنبذ نصائح الأطباء ، وكيف تذهب إذاعات وزارة الصحة ، وكيف تعم الاوبئة في فترات متقاربة أو متباعدة .

والباب الوحيد المفتوح للإصلاح الاجتماعي والصحي من هذه الناحية ، هو باب الوعظ الديني . فهذا الريفي المصري مفتوح السمع والقلب للدين ولدعوة الدين ، وإن لم يكن في ظاهره من المتدينين . وإن المصري لأشد أهل الأرض استسلاما للتدين في أعمق أعماقه ، حتى لتجد هذا الاستسلام في كبار المجرمين والمفسدين !

يستطيع الوعظ الديني المثقف أن ينهض بالعبء إذن في الريف المتدين ؛ وهذا يلفت نظرنا بشدة إلى التقصير في هذه الناحية و إلى القصور فيها كذلك فالواعظ الديني يجب أن يكون مثقفا عصريا عالما ، وأن نبذل من العناية في إعداده ما يبذل لأعظم مشروعات الإصلاح الاجتماعي فهو أساس هذا الإصلاح في الريف .

* * *

أيها الوادي المنساب في ضمير الأبد . أيتها الأرض العريقة في مجاهل التاريخ . إنني أحبكما . أحبكما على الرغم من كل شيء .

وأما أنتم أيها المصلحون الاجتماعيون والمفكرون الاقتصاديون : فتعالوا هنا إلى الريف العريق ، إلى الأرض الطيبة ، إلى الوادي المقدس . ومن هذه البيئة القوية العميقة خذوا مشروعاتكم وسنوا قوانينكم ، و إلا فأنتم خياليون أو هازلون !

سيد قطب